الشيخ احمد ندا *

عزيزٌ عليَّ ، وعزيزٌ عَلَى من شهدوا من أهل مصر هذا الجيل ، ومن شهدوا فيها أواسطَ الجيل الماضى أو أعقابَهُ . عزيزٌ علينا جميعاً أن يُرسَل علينا نعيُّ المرحوم المغفور له الشيخ أحمد ندا . وأنت دائماً إذا ذكرتَ الشيخ ندا فى هؤلاء ، تمثّلوا فيه شيئاً جليلاً عظيماً . تمثّلوا فيه عُنصراً كبيراً مما تتسق به الحياةُ فى مصر ، وما تنتظم به ثروتُها الأدبية . كذلك كان أحمد ندا ، وكذلك يتمثّله القائمون من هؤلاء فى الحياة ما داموا فى هذه الحياة :

ومن عَجَب أن يموت أحمد ندا فى نفس اليوم الذى يموت فيه حافظ إبراهيم . فيُضرَب هذا البلد فى يوم واحدٍ ضربتين قاسيتين حتى على أغنى البلاد وأحفلها بعظماء الرجال !

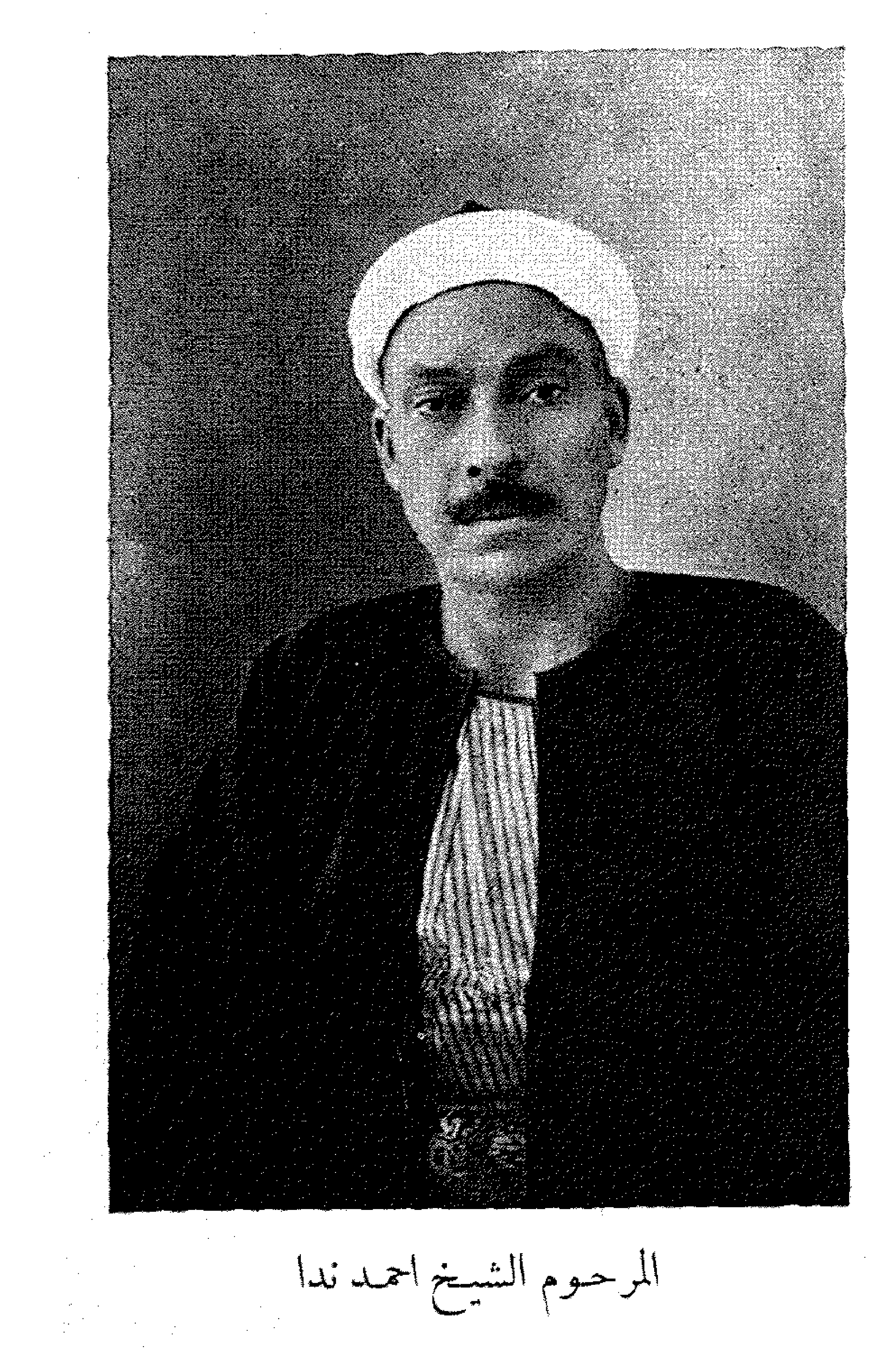
ومن أعجب هذا العجب أن هذين الرجلين ، وإن اختلفت فنونُهما وتفارقت فِى أبواب العظمة وسائلهما ، كانت تجمع بينهما خَلَّة جليلة الخطر ، بعيدة الأثر . وهذه الخلةُ هى شعورُ كل منهما أبلغَ الشعور بالكرامة فى فنِّهِ . وأن أحداً منهما لا يُطيق أن يَبرَعه أحدٌ أو يسبِقه إنسان ، إذا استنَّ الأقرانُ فى حَلبة السباق !

نعم ! وليردّدها القارئ عنى كما يشاء ! ليست الموهِبةُ وحدَها هى التى ارتفعت بكلا الرجلين إلى هذا المكان ؛ فلقد كان للشعورِ بالكرامة ، ومواتاتها بغاية ما يتراَمى إليه العزمُ والقوة أثرٌ جليلٌ فيما بلغا من المنزلة و بُعد الصيت فى جمهرة النابغين .

ولنكسِر القولَ هذا اليوم على الشيخ ندا ، فلصديقى حافظٌ بعدُ كلامٌ طويل .

كان الشيخ أحمد ندا ، عليه رحمة الله ، رَبعة القوام ، مكتنِز اللحم وإن ترهّل لحمُه فى غاية العمر بتراخى السنين . وكان وجهُه أشبهَ بمربَّع مُتحيَّف من زواياه

* كتبت عقب وفاته ، ونشرت بجريدة الأهرام فى يوم ٥ اغسطس سنة ١٩٣٢



المرحوم الشيخ احمد ندا

الأربع ؛ على أنه كان قَسيا حُلو العينين ، حلو الفم على فوَهٍ فيه قليل . تَضرب فى بياض لونه صُفرة لا أدرى إن كانت من الخِلقة أو من مرض طارئ دخيل .

وكان إذا تحدّث تفخّم عليه اللفظ ، فخرجَت تاؤُه بين التاء والطاء ، وخرجت زايُه بين الزاى والظاء ، وسينُه بين السين والصاد . وهو بعدُ حَسن السَّمت ، حَسن الدّل ، متأنّق الهندام ، يُكوِّر عمامتَه على نَسَق خاص يترسَّمه فيه كثير من المعمَّمين ، وخاصة جماعة القراء .

وكان ، أثابه الله ، كأمثاله العظماء بالحق ، جَمّ التواضع ، وافرَ الأدب . لا يَذكر الناسَ ، إن هو ذكَرهم ، إلاَّ بالخير عظيمَ التوافى لمن يعرفهم ، طلاَّعًا عليهم ما اعتراهم المكروه .

*
* *

كان أبوه ، ويُدعى الشيخ أحمد ندا أيضًا ، مؤذِّنًا فى مسجد السيدة زينب رضى الله عنها . ولم يكن صوتُهُ ، على ما انتهى إلينا من خَبره ، على حظّ من الملاحة ؛ ولكنه كان جهيراً قوياً يبالغ من سمعوه فى قوته وجهارته إلى الحد الذى لا يُسيغ روايتَه الرجلُ المَرِيء . ولقد شهِدنا الشيخ أحمد ابنَه وسمعناه وعرَفنا ما أُوتى من قوة فى الصوت لعلنا لم نسمع مثلها إلا من الأقلّ من القليل . إذن فقد زلّت(١) له هذه الخَلة بالميراث عن أبيه .

مات الشيخ أحمد ندا الكبير ، وترك ولديه حامداً وأحمد فتَيَين ، فوُصِل حامدٌ وهو أسنهما ، بمنصِب أبيه ، واتكأ أحمد فى عيشه على ترتيل القرآن فى مُهمّ الناس من المناحات والأعراس ونحوها على سُنَّة (الفقهاء) فى هذه البلاد .

ويوم دَرَج أحمد ندا فى هذه السبيل كان المقدَّمون من حُذَّاق القراء الذين طار صيتُهم فى البلاد كل مَطَار ، هم الأشياخ الثلاثة محمود القَيسونى ، وحسين

---

(١) جاءته

الصَّوَّاف ، وحنفى برعى . على أن أولهم لم يكن يُؤجَر على القراءة فى أسباب الناس ، لأنه كان المؤذِّنَ الخاصَّ لولى الأمر . وإن كان يجامل أحيانًا بالترتيل فى بيوت من يُؤثرهم من العظماء فى مهمّهم . فلم يكن فى المَيدان ، فى الواقع ، من قرّاء الطبقة الأُولى إلاّ السيد حسين الصواف والشيخ حنفى بُرعى ، وسَرعان ما وُصِل بهما القارىء النابت الشيخ أحمد ندا !

وأنت ترى من هذا أن ندا لم يَنبُه بعد خُمول ، ولم يطاوله الزمن فى المواتاة بارتفاع الصيت . وكان إذا اجتمع ثلاثتُهم للتلاوة تقدّم السيد حسين الصوّاف لعلوّ سنه ، ولحَسَبه ومنزلته فى كرام الناس ، ثم قفّى على أثره الشيخ حنفى ، ثم أحمد ندا لأنه أصغر الثلاثة فى عدد السنين .

على أننا لم ندركْ السيد الصواف إلاّ وهو فى أعقاب العمر ، فلم يتهيأ لنا أن ننعَم بصوته ، أو نتذوّق فنّه ، إما لأن صوته كان قد علاه الشيب ، أو لأننا نحن كنا أحداثًا لا نُدركُ فى هذا الباب ما يُدركُ الرجلُ التامّ ؟ فكان الصّراع لأول عهدنا دائمَ الشُّبوب بين الشيخ حنفى برعى و بين الشيخ أحمد ندا .

وكان الشيخ حنفى ، رحمه الله ، رجلاً مكوَّر الوجه ، مكوَّر الجسم ، تحسبه إذا جلس إحدى القُدور الراسيات ، وكان على هذا حُلوَ الصوت دقيقَه ، أشبه ما يكون بصوت العود يتلعَّب بأوتاره الحاذقُ الحُسّان ، وكان إلى هذا على حظ من الفنّ عظيم ، يقرأ على طريقته التى ابتكرها هو ابتكاراً واحتذاها بعدُ كثيرون .

كان الصراعُ كما حدَّثتُك بين الشيخين عنيفًا دائمًا ما اجتمعا ، فيكون الغَلَب لهذا مَرة ، ولهذا مَرة ، والسامعون هم الفائزون على كل حال . وكانت لهما مواسم يَطلبها الناسُ من كل مكان، وكان أجلّها وأفخرها فى بيت المرحوم داود بك العيسوى فى مولد الحُسين بن علىّ رضى الله عنهما .

على أن الشيخ أحمد ندا ما زال يَقوى ويَشْتدّ ، ويُبدع ويَفتنّ ، إذ الشيخ برعى ما بَرِح يضعف ويَهزُل حتى أسلم سلاحَه وخرج من الميدان بسلام .

* * *

نعود بعد هذا إلى صوت الشيخ أحمد ندا وفنّه وطريقة أدائه :

لم يكن صوتُ الشيخ ندا حُلواً بالمعنى الذى يُدرَك من أصوات مثل المرحومين الشيخ يوسف المنيلاوى وعبد الحى افندى حلمى ، ولا من مثل صوت الآنسة أم كلثوم وصالح افندى عبد الحى ، ولكنّ له جَمالاً من نوع خاصّ ، فلقد كان قوياً شديد القوّة ، يرتفع إلى ما تتقطّع دونهُ علائق غيره من الأصوات ، وكان مع هذا عريضاً بعيد العَرْض ، حتى إذا جَلجَل وانصقل ، صار أشبهَ فى وضوحه وبُعد عَرْضه بصَفحة الافُق ساعةَ ينصدِع عمودُ الصباح .

وعلى أن مثل هذا الصوت ، إن كانت له مَشابه ، مما يتعذّر معه إحكامُ النَّبرة (العَفق) سواء فى بعض الترنيمة أو فى غايتها ، فانه لم يَكُ يَلحَق ندا فى هذا الباب إلاّ الأقلُّون ممن رُزِقوا رقةَ الأصوات ولينَها . ومن هنا تدرك قَدر الموهبة التى أُوتيها أحمد ندا فى هذا الباب . فان لم يكن الأمرُ فيه إلى الموهبة ، فقدِّر ما كان يَلقاهُ ذلك الرجل فى هذا من عظيم العَناء !

وقبل أن نجاوز هذا الموضعَ من صفات الرجل ، نقرر أن صوته لم يكن له حظٌّ كبير فى قراراته ، أو ما يسميه أهلُ الفن (بالأراضى) ، بل لقد كانت أرَضُوه واضحةَ الأقفار ، حيث كانت ثروتهُ كلُّها فى أثنائه (البدنية) ، وفى أعاليه ، فكان لهذا دائمَ الاتكاء عليهما فى ترجيعه عامَّةَ ليله ، فلا يتنزَّل إلى قراره إلاّ ليُصيب راحةً ضئيلةً يَستَجِمّ فيها ، فى الوقت نفسه ، لوثبة يرتفع فيها إلى عَنَان السماء !

أما فنُّه ، وهنا التفت بالكلام إلى الأستاذ التفتازانى ، وقد كتب عن الشيخ ندا فى (الاهرام) كلاماً طريفاً ذهب فيه ، إن صدقت ذا كرتى الكليلة ، إلى أنه رحمه الله كان يجرى على عِرْق عظيم من العلم بفنّ الموسيقى ، وهذا لا يُشايع الواقعَ فى كثير ولا قليل .

وقبل أن أخوض فى هـذه المسألة أقرر ، كما قررت من قبل فى مناسبات كثيرة ، أن الفن شىء ، وأن العلم بالفن شىء آخر ، فليس كلُّ مفتنٍّ عالماً بالفن وأصوله وقواعده ، وليس كل عالم بالفن وأصوله وقواعده من المفتنِّين .

إنما مَلَكةُ الفن ترتكز فى أصلها إلى الموهبــة . أما العلم بالفن فمرجعه إلى الدرس والمذاكرة وطول النظر . وشَتَّانَ ما بين هذا وهذا !

بعد هذا أُصارحه غير متحرّج ولا متحرِّف عن مكان الحق ، ولا متنقّص لقَدر هذا الرجل الذى أتجرد اليوم لذكره إيثاراً له وهُتافاً بفضله العظيم ، أصارح صديقى الأستاذَ بأن الشيخ أحمد ندا لم يكن على حظ جليل فى علم الموسيقى ، بل لعل علمه به لم يزد على إدراك أَوَّليات النغم بما تلقّف فى صدر نشأته من لِداته : هذا صَبا ، وهذا سيكاه ، وهذا عراق ، وهذا جركاه الخ . أما أنه تلقى هذا العلم وحَذَقه أو عُنِىَ عنايةً جليلةً به ، فهذا لم يقم عليه أىّ دليل ؛ بل لقد أعلم ويعلم كثيرٌ غيرى ، وليس هذا الحسن الحظ بغاضٍّ من قدر الرجل ولا بمتحيِّف من عظمته العظيمة — لقد أعلم ويعلم كثير غيرى غيرَ ما تقول :

فان شئت الواقع ، فالواقع أن أحمد ندا لم يكن عالماً قطّ بالموسيقى ، وإنما كان فنّاناً حقَّ الفنّان ، وكان حُساناً كل الحُسان . كان من أولئك الأفذاذ الذين بعث الله فى نفوسهم تلك الموهبةَ النيِّرةَ التى تشقّ وحدَها فى الفن طريقَها

فتُعبّدُ فيه سُبلاً ، وتمهّدُ له طروقاً ، وتخلُق فيه أحداثاً لم تكن خُلقت من قبل . وهكذا كان الشيخ أحمد ندا . وهكذا أبدع فى فن ترتيل القرءان بِدَعاً لا عهدَ للناس بها من أول الزمان . ولن يزال يَترسَّمها القارؤون إلى بعيد من الزمان . فالشيخ ندا من أحد أولئك القلائل الذين لم يُجدِ عليهم العلمُ بالفن ، وإنما أجدَوا هم على الفن بما رُزقوا من سلامة الفِطَر ودقة الأحساس ، وتلك المواهب العظام !

وهؤلاء أشبه بالقُمرىّ إذا سجَع وغَرَّد ، وبالجدوَل إذا تعطّف فى الرَّوض وتأوّد . وبالبدر إذا استوى فأشرق نُوره ، وبالوَرد إذا تفتّح فسَطَع عبيره ، اسأل ما شئت من هؤلاء كيف صنع ، وعمّن أَخَذ وعلى يد مَن برَع . وخبرنى بعد هذا الجواب .

*
* *

أما أُسلوبه وطريقة أدائه ، فلقد جَعل من أول نشأته يحاكى الشيخ حنفى برعى ويَستَنُّ سبيله ، ويَنهجُ مَنهجه . وكذلك كان فى عامَّة ترتيله ، اللهم إلاّ ما كان يَستحدثه ذوقُه الخاصّ . وكان هـذا قليلاً بالاضافة إلى سائر شأنه . ولقد أدركناه نحن وهو فى أُسلوب أدائه على هذه الحال . وتأبى عليه كرامتُه الفنية إلاّ أن يُحدث كل يوم حَدثاً فى الصنعة من مبتكَره هو ومن بدع ذَوقه ، يَطرح بأزائه شيئاً مما أَخذ عن أستاذه الشيخ حنفى ، حتى استوت شخصيتُه وأدركت ، وتمّت له صنعةٌ جديدةٌ فاخرةٌ فى فن القراءة والترتيل .

كان الشيخ ندا رجلاً صائداً لا يُخطئ سهمُه ما سنحت له الرمِيَّة . ولقد كانت تعتريه (الحركة) فى بعض ترتيله عفواً ، ما اجتمع لها ولا أَسلف لها

تقديراً ، إذ هي طريقةٌ لم تجر من قبل على مثال فما يزال يكرُّ عليها ويُردّدها في مختلف الآى حتى يَحذِفها ويُضيفها إلى فنه السرىّ الجليل !

ولقد كان يبدأ قراءته ، وخاصة فى نوبتهِ الأولى ، مضعوفاً متخاذلاً حتى ليكادُ يكون ترنيمه ضرباً من الحشرجة ؛ وحتى يُحضرك قولَ الشاعر :

إنّكَ لو تَسمَع ألحانَهُ تلك اللّواتى ليس يعدوها
لَخِلْتَ من داخل حُلقُومِه موَسوَساً يَخنُق مَعتُوها

وإنه أثناء هذا ليكثر من التسعُّل والتنحنح ، ولا يزال يدور بصوته الأجشِّ المهزوم على فنون النغم لعله يوافق فى إحداها بعضَ الفرج ، فيدركك اليأسُ كلُّهُ من أن الرجلَ فى ليلته تيك مستور . وكلما زاد صوتَه عِلاجاً ومُطاولةً أقبل عليهِ هذا الصوتُ بشيء من المواتاة ، وأحسّ منهُ سامعهُ بشيء من الانتعاش أشبهَ بما يُحسّ العليل أحياناً فى مِرضَته الأخيرة ، وربما عاوده الانتكاسُ فعاود هو المراجعةَ وشدةَ المطاولة ، ولا يزال على هذا حتى يستوى قارئاً عادياً لا فضلَ له ولا امتيازَ على غيره من جَمهرة القراء ، حتى إذا أدَّى قَسمهُ أخلى الميدان لقِرنهِ فجال فيهِ ما شاء الله أن يجول ، وصال على الشيخ ما شاء أن يصول !

فاذا جاءت نوبتُهِ الثانية واستوى فى مجلس الترتيل ، رأيتَ فيهِ فتاء وقوةً لا عهد لك بهما من قبل ، وخرج صوتهُ مُرِناً واضحاً ليس عليهِ من الصَّدإ إلاَّ قليل . ويقرأ ثم يقرأ ؛ على أنهُ لا يأخذ فى قراءتهِ سَمتاً واحداً ؛ بل ما يبرَح يترجَّح بين فنون النغم ؛ ولكنَّ تحيُّره هذه المرةَ ليس فى التماس النغمة التى تُعيذه وتَعصمه ؛ بل فى التماسِ تلك التى تُضنيه وتُتعبه ، إذ صوتُه فى أثناء ذلك يقوى ويشتدّ ، ويعلو ويصفو ، حتى يَصير أوضَحَ من فِرِند سيفٍ خرج لساعته من الصِّقال .

وَينطلق فى طلب الصَّيد من هاهنا ومن هاهنا ، ولا يُريغ من النغَم إلاَّ الأوابد . فاذا أصاب قَنيصتَه راح يُلوّن لها الافتراسَ ألوانا ، ويُشكّل لها الالتهامَ أشكالا ، فما يدَعها إلا (أعْظُماً وجلوداً) ، وهو أثناء ذلك يقيم الناسَ ويقعدهم ، ويَطويهم وَينشُرهم ، ويُذيقهم المهوّلَ الرائعَ من الطَّرَب والانبهار . وما شاء الله لا قوةَ إلا بالله !

وهو رجلٌ جريء جداً فى بابه ، لم أر من يَعدِله فى جَراءته إلا أن يكون الاستاذُ الشيخ على محمود ، وصل اللهُ فى عمره . فلقد كان الشيخ ندا رحمه الله يكون فى أعلا طبقات الصوت إلى الحدّ الذى يُعلّق له السامعُ النفَس ، ما يظُن أن وراءه لصائح مَدى ، إلاّ أن تتصدّع الَحنجرة أو ينفجِر الوريد . ثم تَتنظّر له من جانب السماء نغمةٌ جديدة ، فسَرعانَ مايتجمعُ لها ، فما يزال يَمُطّ صوتَه القوىّ الجرىء إليها ، ولقد تراوغه بادئَ الرأى ، فلا يَبرح يَتحرَّف لها متيامناً تارةً ومُتياسِراً أُخرى . حتى إذا شكَّها زرَّ حَنجرتَه عليها ، فخرجت له ، على هذا الجُهد كلّه ، نبرةً لينةً حلوة ، لا عُسر فيها ولا كُلفة ، كأنما أصابها وهى تدِفّ[1] على ظهر الأرض لا تحلّق فى عَنان السماء ! . ولقد أبت عليه كرامته فى تلك المواقف المهولة أن تَزِلّ به قَدم ، أو ينشزُ عليه ما أراغَ من النغَم ! .

ولو قد هُيِئ لك أن تَسمعه فى نوبة ثالثة ، فتلك التى لا يَتعلّق بها وصف واصف ، وسبحانَ الخلاق العظيم !

*
* *

ولقد عاش الشيخ أحمد ندا ، على هذا ، خمسين سنة أو تزيد قليلا أو تنقص قليلا ، قضَى منها سنينَ طِوالاً لا يكاد يَستريح من السهر ليلةً واحدة . ولقد

---

(١) دف الطائر : حرك جناحيه

يَسهر الليلة فى أسيوط ، ويَسهر الليلة التالية فى المحلة الكبرى مثلا ، فيُجلجِل في الثانية كما يُصلصِل فى الأولى ، ما ترى على صوته أثراً لضعف ولا انخذال !.

وإذا كان تاريخُ الغِناء العربى قد أحصَى نفراً ممن عُمِّروا فيه مع القوة وسلامة الصوت من أمثال إسحاق الموصليّ وابن جامع ، فقد امتاز الشيخ ندا عن أولئك جميعًا بأنه أَمضى جميع تنغيمه بذلك الجهد الشنيع . فهو بلا شك رجلٌ فى التاريخ عظيم . ولولا أن الحديث قد طال لذكرتُ كثيراً من مفاخره فى لياليه ؛ وإن من حقه على معاصريه أن يُثبتوها له على وجه الزمان .

وإنى لأختم هذا الكلام بتصحيح واقعة أيضاً رواها السيد التفتازانى عن الفقيد فيما أبَّنه بهِ فى الأهرام . فلقد روَى أن الشيخ أحمد ندا انقطع بضع سنين إلى الغِناء، وترك ترتيل القرءان ! . والواقع ، وأنا فى هذا شاهدُ رؤية ، أن الرجل لم ينقطع قطّ عن ترتيل القرءان والتكسُّب بهِ . ولكن أَتى عليهِ وقتٌ كان إذا ختم تلاوتهُ فى حفلة عُرسٍ أو نحوه ، جاؤوه بعوّاد فاستوَى إليهِ وجَعل يَتغنَّى ببعض المقطوعات ، وكثيراً ما كان يُرجِّع أبياتاً من الشعر أذكر أن أولها[١] :

عُمرِى عليكَ تشوُّقاً قضَّيتهُ وعَزيزُ صَبرى

على أنهُ كان يَتغنَّى على طريقتهِ فى القراءة ، فكان غِناؤه سخيفاً مضحكا . وإن غناء القراء لأشبهُ بشعر الكتَّاب ، كما أن تلاوة المغنِّين أشبهُ بنثر الشعراء !.

---

(١) لقد تفضل أستاذى العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار فاستدرك على فى الأهرام ، فصحح هذا الشعر فى كلام لا أستحقه إلا بمحض عطفه على صديقه ومريده ، فروى حفظه الله أن صحة البيت هى :

عمرى عليك تشوقا قضيته وعزيز صبرى فى هواك أهنته

وبعده :

وجعلت أبذل فيك در مدامعى حتى افتقرت إلى العقيق بذلته

ومهما يكن من شيء فانهُ لم يَلبث فى هذه المحنة طويلا ، فلقد ترك الغِناء بَتاتًا وتوفَّر على تلاوة القرءان الكريم .

* * *

هذه كلمةُ حقٍّ أُرسلُها خالصةً لوجهِ الله تعالى ، وفاء لحقّ التاريخ أولا ، ولحقّ الصحبة الطويلة والجُوار السعيد ثانيًا .

وإنى أسأل الله تعالى أن يُثيب الفقيد العظيم بقدر حسناتهِ ، وأن يعزّى هذه البلادَ عنهُ أحسَن العزاء .